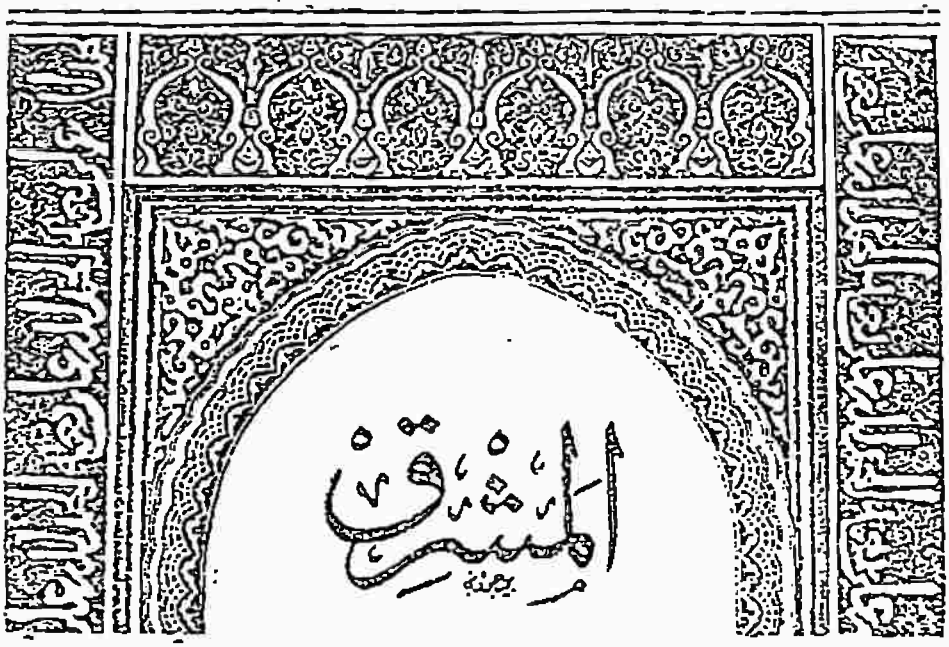

المشرق
بيروت

السنة الخامسة والثلاثون

تموز – ايلول ١٩٣٧

عادات وتقاليد رومانية

الحمامات – المآدب – المسارح والملاعب *

بقلم الامير موريس شهاب
امين دار الآثار اللبنانية

طرق الاستحمام

من مظاهر الحياة الاجتماعية المبينة في رومة وسائر المدن الرومانية، وما يلحق بها من المستعمرات ومناطق النفوذ الروماني، عادة الاستحمام وما كانت تفرضه من اساليب يسير عليها المستحمون قبل الحمام، وفي اثنائه، وبعده؛ حتى اصبح الاستحمام من ميزات الرومانيين الخاصة، واصبحت الحمَّامات من المباني الرومانية الفخمة.

(* مادة محاضرة من محاضرات «معهد الآداب الشرقية» في فرع «التاريخ والاثريات في سورية وفنيقية».

وقد تسربت اليهم هذه العادة من اليونان ، وان يكن هؤلاء لم يعهدوا الحمام الساخن الّا نادرًا في عهد هوميروس . ذلك ان الاستحمام بالماء الساخن كان دليل الضعف والتخنث في نظرهم ؛ الّا ان يكون المستحم مريضًا او مدفوعًا بسبب كالمرض . اما الحمام البارد فكان مرغوبًا فيه حتى في الشتاء ، وهو دليل القوة والنشاط . ولهذا كان سكان اسبارطة ، على نفورهم من الماء الساخن الّا في النادر ، يغطسون كلّ يوم في مياه نهر اوروتاس الباردة . على ان اهل اثينة لم يجاروا الاسبارطيين في هذه العادة المنشطة ، لان ما فُطروا عليه من التجمّل وتكرّه المشاقّ كان يدفعهم شيئًا فشيئًا الى الاخذ بالحمام الساخن .

وهو ما اورثوه اهالي رومة . فعمّ استعماله حتى اصبح من العادات اليومية ، يقوم به الرومانيون في الساعة الثامنة من النهار ، اي قبل مغيب الشمس باربع ساعات .

ولم تلبث الحمامات العمومية ان اصبحت محلّات للاجتماع والرياضة البدنية ، يقضي فيها ذوو البطالة ايامهم كاملةً . ولما اصبحت هذه الحمّامات مجانية ، كان كثير من الفقراء يألفونها في سبيل الدفء والراحة .

۞

واذا ارتقينا في تاريخ هذه الحمّامات الى القرن الثاني ق . م . ، نجد انها كانت نادرة في البيوت الرومانية لا ينعم بها الّا سراة القوم . وان لنا في آثار سينيك وصفًا لحمّام سيبيون ، غالب هنيبعل ، لا بأس بإيراده . قال انه كان « خاليًا ، ضيقًا ، مظلمًا ، لا تنيره النوافذ بل فتحات اشبه بالمرامي . ولم يكن ماؤه منقّى ، فكان يظهر على شيء من الوحل ، بعد الامطار القوية » . هذه حالة احد الحمّامات الخاصة في اوائل القرن الثاني ق . م .

على ان الرغبة في الترف المتسرّبة عن اليونان بدّلت شيئًا فشيئًا من عادات الرومان الشظفة ، فنعمت طرق معيشتهم ، واصلحت من مرافق حمّاماتهم فأُضيف الى محلّ الاستحمام قاعات جديدة للاستعداد والراحة . ولم تلغَ الفروق بين السُّراة والعامّة حتى اخذ الرومان جميعهم يختلفون الى الحمّامات العمومية انما كانوا ، في اولّ الامر ، على قسطٍ وافر من الحياء . فكان يمتنع الصهر عن الاستحمام مع حميه خفرًا وتأدبًا . ولكن انتشار الالعاب الرياضية ، وما تفرضه

من ضرورة الاغتسال ، عمل على تخفيف الحياء فلاشاته . واذا باهل رومة يستحمون مختلطين.

وقد زادت هذه العادة انتشاراً على عهد الامبراطورية ، يعاونها فساد الاخلاق وقلة الاكتراث ، حتى اصبحت الحمامات مشتركة بين الرجال والنساء يختلطون فيها انّى شاؤوا ؛ على رغم ما حاوله بعض الاباطرة من منعها فلم يُفلحوا، ولم يقوَ عليها الّا النصرانية في القرن الرابع ، فانتصرت على هذه العادة انتصارها على الكثير من العادات الوثنية.

◻

كان الرومانيون في اول الامر يدفعون رسماً للدخول الى الحمام . حتى اذا عمّت العادة ، واصبح الحمام من مرافق الحياة اليومية ، اخذ بعض كبار القوم والاغنياء يُنشئون الحمامات المجانية ، في سبيل ارضاء الشعب واستعطافه. فزاد عدد الحمامات زيادة عجيبة في جميع مناطق العالم الروماني . ففي القرن الاول اضاف أغريبا الى حمامات رومة ١٧٠ حماماً جديداً . وفي اوائل القرن الرابع ، كان في رومة وحدها ، على عهد قسطنطين، ٨٥٦ حماماً.

◻

اما بناء الحمامات فكان بسيطاً حتى اواخر الجمهورية . كان يُكتفى بغرفة او غرفتين الى جانب المطبخ فيصل الماء اليها ساخناً . حتى كان اوائل القرن الاول ق . م. فانشأ سرجيوس أورانا حماماً مبلّطاً مرفوعاً على اركان منفرجة (hypocaustes) يتخللها الهواء الساخن واصلاً من الموقد . وبعد ذلك أضيف الى هذا البناء حيطان من الآجرّ المفرّغ متصلة بالاركان المذكورة . وكان من عمل ميسينوس الشهير في رومة انه كان اول من انشأ بركة فسيحة يسبح فيها في الماء الساخن . وفي الوقت نفسه بينا كان ميسينوس ينعم بهذا الترف ، كان اغوسطوس يكتفي بان يعرّق جسده امام النار . ثم يكبّ عليه الماء المسخّن بحرارة الشمس.

وعندما نُظّمت طريقة الاستحمام ، اصبح للحمّام ثلاث غرف تمثل ثلاث محطات يتنقّل بينها المستحم.

فيبدأ بغرفة قريبة من المدخل تدعى apodyterium يترع فيها ثيابه ، بمعاونة اوليائه وعبيده ، ان كان من ذوي اليسار ؛ فيضعها في اماكن خاصة منقورة في الجدار على مسافة عالية مخافةَ ان تصل اليها ايدي السلّابين . وكان الكثير منهم يمتهنون هذه المهنة ظافرين بثياب مَن لا عبيد لهم من المستحمين. وكان هؤلاء يستأجرون ، على الغالب ، من يحفظ ثيابهم إبّان الاستحمام.

من هذه الغرفة الاولى ، كان المستحمّ ينتقل الى غرفة ثانية اسمها tepidarium ، فتعدّه شيئاً فشيئاً الى الانتقال من الهواء البارد في الخارج الى الحرارة الشديدة في الغرفة الثالثة المدعوّة caldarium . والغرفة الثانية مبنيّة كالثالثة على الاركان المتفرجة المذكورة ، ومكتنفة غالباً بجدران الآجرّ المفرغة. على ان حرارتها كانت معتدلة لبعدها عن الموقد. في هذه الغرفة كان يقيم المستحمّ وقتاً كافياً لتعريقه ، فإعداد جسده لقبول الحرارة الداخلية. ولما كان الزبائن ينعمون بالاقامة مدة في هذه الغرفة المتوسّطة ، ولما كان جوّها اقلّ رطوبة من جوّ الغرفة الثالثة ، امكن اصحاب الحمّام ان يزخرفوا حيطانها وسقفها. وقد اظهرت الحفريّات في ساحة پومپي غرفةً من هذا النوع مزدانة السقف بكثير من النقوش البارزة وحافلة الجدران بعددٍ من تماثيل الرياضيين تفصل بين طاقات الثياب.

اما الغرفة الثالثة فكانت بجوار الموقد ، وكان فراغ جدرانها وارضها يزيد في قبولها للحرارة ، فتبلغ فيها درجةً لا تكاد تُحتمل. وهي مستطيلة الشكل مزيّنة بالرخام والملاط المرخّم ، مستديرة احد الطرفين على شكل حَنيّة فيها جرن مستدير. وفي الطرف الآخر بركة واسعة تحوي الماء الساخن كذلك.

يبدأ المستحمّ بتلقّي حمّام من العرق . حتى اذا اكتفى ، تحوّل إمّا الى الجرن يرشّ جسده بمائه ، وإمّا الى البركة يغطس فيها سابحاً.

وكان من المسكن تعديل الحرارة في هذه الغرفة بواسطة ترس معلّق تجاه فوهة الموقد بسلسلة يستطيع المستحمّ ان يشدّها او يرسلها ، فيزيل او يعيد الترس امام الفوهة.

بعد هذا الحمّام الساخن ، كان المستحمّ يرجع الى الغرفة الثانية حيث ينتظره الدلّاكون ، فيدلكون اعضاءه. ثم يأتي صاحب المِشَط (strigile) فيمشّطه

ـــوهو نصل طويل من البرونز معقوف مجوّف (الرسم ١)ـــعلى جسد المستحم . وبعد ذلك يمكنه ان يغطس في الماء البارد، فينيل جسمه فائدة ردّ الفعل .

الطيوب

بيد ان ترف العادات الرومانية المستمدّ من الشرق لم يكن ليكتفي بهذا الحمّام وحده . لقد غزت رومة الشرق ، على عهد الامبراطورية ، بقوة سلاحها ، وكثرة جيوشها ؛ فغزاها الشرق بآرائه وترفه . وكان الشرق ، منذ القدم ، يولي الطيوب والعطور المقام الاول في حياة النعيم والغبطة . حتى ان الملك داود لم يكن ليستقبل الزوّار وارباب الحاجات الا بعد ان يكثر من التجمّل والتطيّب . وهو ما نرى ذكره الذكرَ الواسع في المزامير والامثال وغيرها من اسفار العهد العتيق . فهناك الزيت المطيّب ، والمرّ ، والندّ ، والعنبر ، والدارصيني ، وغيرها تعطّر الملوك والامراء وسائر السراة بل الكثير من افراد السوقة .

ولا يخفى انـه متى تداخلت مدنيتان تأخذ الواحدة عن الاخرى اسهل ما تراه مؤثّرًا في الشعب . ولا يتحقق ذوو البصر في الامّة نظريات الامة الثانية واسباب قوّتها ومنعتها الّا بعد هذا التأثير الأول بمدة قد تكون طويلة . وهكذا فان الشرق أثّر في العالم الروماني بعاداته الترفية ، وسهولة معيشته ، وما جرّته من نظريّات واخلاقيات ، منذ اوائل عهد الامبراطورية . فبدأ الرومانيون بنقل مظاهر الحياة الناعمة . ومنها استعمال الطيوب الشرقية استعمالًا غريباً في تضميخ الأجساد ، والثياب ، والمنازل ، والحمّامات ، والخيول .

وكان لا بدّ من استيراد المبالغ الكثيرة من هذه الطيوب . فاخذ العالم الروماني ، على نفور شيوخه وقدمائه من المتمسكين بالعادات الزائلة ، يشتري من طيوب بلاد العرب ، والفرس ، والصين ، بقيمة مائة مليون من الدراهم الرومانية (sesterce) . وهذا الكاتب بلينوس يحنق ساخطاً لانفاق هذا المبلغ الكبير في سبيل بلاد العطور . وكانت فنيقية في طليعة البلاد المصدّرة العطور . تستخرجها من الزنبق ، والسرو ، والحناء خاصة . وكانت صيدون من أشهر الاسواق العطرية .

اما تركيب العطور فكانوا قلما يستعملون فيه التقطير. انما كانوا يمزجون المواد العطرية بزيوت او ادهان يبيعونها في الصيدليات . ولهذا كان الطفيليون وذوو البطالة ينعمون بالاختلاف الى الصيدليات حيث يلذّون مجاناً برائحة العطور الفائقة عند نقلها وبيعها. وكانت هذه العطور تُباع بالثمن الغالي ، ذكر منها پلينوس ما كان يباع الثلاثمائة غرام منه بمبلغ خمسين ليرة. فكان لا بدّ من ان ترى الحكومات في هذه التجارة مورد ضرائب ورسوم مهمة. وكانت بعض الملكات الشرقية من امثال أرسينوي وبيرينيس ، رغبةً منهنّ في زيادة موارد الدولة من هذه الرسوم ، ينشرن عادة التضمّخ بالطيوب على طريقة غريبة فيقتدي بهنّ كبار القوم ، فافراد الرعية جميعاً.

وقد تجاوزت عادة التطيّب الأحياء الى الموتى. فكان اهل الفقيد يزوّدونه بتلك القوارير الزجاجية المشعّة التي كثيرًا ما دعاها عامّة المنقّبين خطأً بالبكّاءات واهمين انها كانت تُستعمل لجمع دموع الحزانى والمتأسفين ؛ والحقيقة انها كانت من آنية الطيب. (الرسم ٢)

وكان الروماني ، اذا ما انتهى عملية الاستحمام اليومي ، ينتقل الى غرفة خاصة ، فيُقبل العبيد على دلك جسمه وتضميخه بالطيوب المعطّرة ، حتى يخرج لمّاعاً من الطيب. وقد أُلحقت هذه الغرفة في ما بعد باقسام الحمّام الروماني المهمّة.

الحمامات — المجمّعات

وكان من الطبيعي ان تتطوّر الحمّامات ، فلا تنحصر بمنشآت صحّية . وسرعان ما تحوّلت الى اماكن للاجتماع ، والمباحثات ، والتمارين الرياضية.

وكان من الرومانيين من يقضون نهارهم بكامله في الحمّامات . بعضهم يدرسون في المكاتب التي أُلحقت بغرف الاستحمام. وبعضهم من طلّاب الرياضة البدنية يتمرّنون ، قبل الحمّام ، في الساحات وتحت الاروقة على انواع اللعب. حتى اذا انهكت اجسامهم وغطّاهم الغبار ، دخلوا غرف الاستحمام. وكان ذوو الخَفَر ، او ممن يأنفون الاشتراك مع الجمهور ، يستحمّون في غرف خاصة.

وقد ترك لنا سينيك وصفاً حيّاً لاحد هذه الحمّامات من المفيد ان نورد

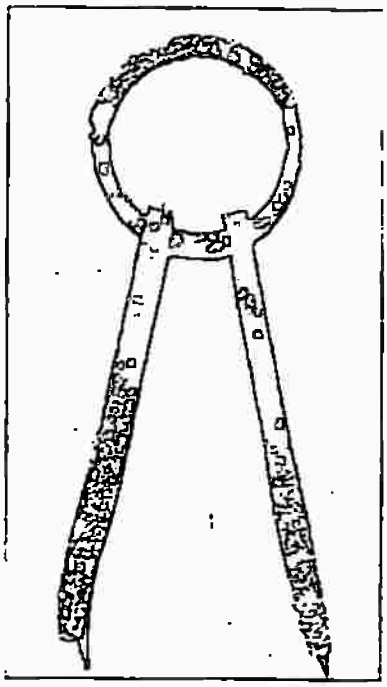

الرسم ١ : مقبض من الخزف من العهد الروماني

الرسم ٢ : آنية لطيب من الزجاج ، تعرف عند العامة بالكحالات

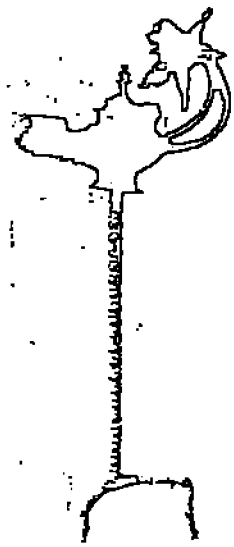

الرسم ٣
مدرجة من البرونز ترقى الى العهد الرومانى

الرسم ٤
فانوس ومصباح من أوائل العصر البيزنطى

بعضه قال : « تقوم عليّ من كل جهة انواع مختلفة من الاصوات لاني اسكن فوق حمّام . تصوّر كل شكل من اشكال الضجيج والصخب الثقيلة الوقع على الأذن : هناك الابطال ذوو المقدرة الجسدية يتمرّنون على الصراع ، او يوازنون الاثقال الرصاصية على سواعدهم حتى اذا تعبوا ، او تظاهروا بالتعب ، سمعت انّاتهم المتواصلة . وكلما ضبطوا انفاسهم مدّة ، ثم اطلقوها ، فهناك الصفير والتنهّدات المزعجة . واذا وقعتُ على دلّاك قليل الحذق لا يعرف الّا التدليك البسيط ، فانه يتناول كتفيّ بدلك يحدث اصواتاً مختلفة بين استخدام راحة كفّه او قفاها . حتى اذا جاء لاعبر الكرة واخذوا باحصاء علاماتهم ، قل عليك السلام ! هذا فوق ما هناك من المخاصمات ، وسرّاق الثياب ، واولئك الذين يستعذبون اصواتهم في الحمّامات ، والذين يقفزون في البرك بقوّة يثيرون معها المياه الرشّاشة . أضفْ الى كل ما تقدّم نتّاف الشعر الذي يريد ان يلفت اليه انتباه القوم فيتغنّى بصوته الرفيع المزعج ولا يسكت الّا اذا بدأ نتف إبط المستحمّ المسكين فجعله يصرخ مكانه من الألم . ولا ننسَ باعة الحلويات ، والمرّبيات ، والخمارين المنادين كلٌّ على بضاعته بصوتٍ خاصّ ونغمة مميّزة . »

وكانت الحمّامات تقفل ابوابها بعد غروب الشمس ، فيغادرها المستحمّون واللاعبون ، الّا فريقاً منهم لم يكونوا يعبأون باحكام القانون فكانوا يبقون الى ساعة متأخرة من الليل ، على ضوء قناديل وُجد الكثير منها في الحفريّات التي أُجريت في امكنة الحمّامات الرومانية . (الرسمان ٣ و ٤)

المآدب

وكان من الطبيعي ان المستحمّين ، وقد قضوا الساعات في اللعب ، والتمرين ، والاستحمام ، يشعرون بالجوع . فكانوا ينتقلون من الحمام الى الأكل .

وساعة الأكل العادية كانت التاسعة من النهار ، اي قبل غروب الشمس بثلاث ساعات . على ان هذه الساعة لم يعمّ التقيّد بها ، فان الكثيرين كانوا يبدأون الأكل منذ الظهر ، وغيرهم لا يجلسون الى الموائد الّا في ساعة متأخرة . وكان معدّل المدّة المعيّنة للأكل ثلاث ساعات على التقريب . وكثيراً ما

كان نيرون يظلّ على المائدة الى منتصف الليل . واحياناً كان السحر يفاجئ الآكلين.

اما غرفة الطعام او المائدة فكانت ، في اول الامر ، في الطبقة السفلى من المنزل ، عند المدخل او وراءه . ثم انتقلت الى الطبقة العليا . ولمّا أُلحق بالمنزل ناحية جديدة ، جُعلت المائدة عادةً الى جنب الغرفة المعروفة بـ (tablinum) ، وفُتح بابها على الرواق . ولكنّ الطاعمين لم يكونوا ليتقيّدوا دائماً بوجود غرفة خاصّة للمائدة . فان مناخ البحر المتوسّط كثيراً ما كان يدفعهم الى الأكل في الرواق المتلاعب فيه الهواء الطلق.

ومن السهل علينا ان نعرف غرفة المائدة في الآثار الرومانية ، بوقوفنا على المقاعد او الاسرّة الحجريّة الثلاثة المحيطة بالخوان . ولهذا كثيراً ما دُعيت الغرفة المذكورة triclinium .

على ان هذه الأسرّة رُفعت احياناً ، واستبدل بها اسرّة من الخشب المزخرف او من الموادّ الثمينة كالعاج والفضة والذهب . وقد رأينا امثلةً منها في الآثار المدفنية او في المآدب الطقسية.

وكانوا يضعون على هذه الاسرّة طنافس ومساند ووسائد محشوّة بالقطن يستجلبون بعضه من دمشق. (الرسم ٥)

وكان اهل المنزل كربّ البيت وامرأته وابنه ، او احد مواليه ، يتوسّدون سرير اليسار ، تاركين للمدعوّين سرير اليمين ، ولرئيس المأدبة سرير الوسط .

ومنذ الأحقاب العريقة في القدم ، نرى ان الرومانيين كانوا يستعملون قُوَط السفرة يرأسها ربّ البيت على المدعوّين . على ان بعض المدعوّين كانوا يأتون بقوطة اخرى معهم يضعون فيها ، عند الانصراف ، شيئاً من المأكولات يحملونها الى بيوتهم هديّةً من صاحب الدعوة . اما الخوان فكان من الخشب على الغالب . وكان يُمسح على اثر كل اكلة. (الرسم ٦)

وفي آخر القرن الاول للمسيح بدأ استعمال الشرشف . ولكن كثيراً ما استُبدل به « صدر » من الفضة يضعون عليه صحاف الطعام . وقد تفنّنوا في نقش هذه « الصدور » وزخرفتها الى الغاية . فكان منها ما يمثّل الابراج

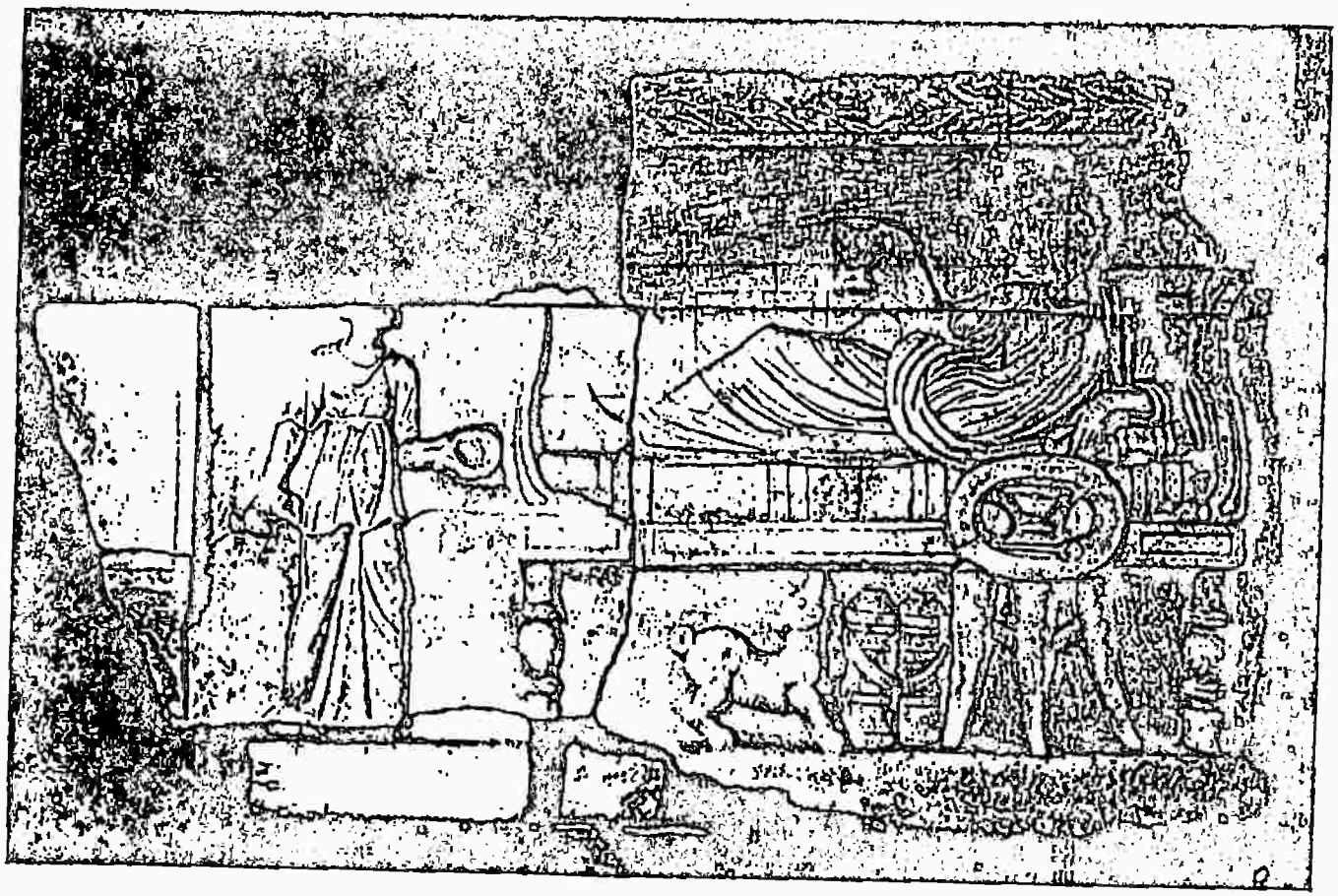

الرسم ٥ : امرأة أتكل ممددة على سريرها

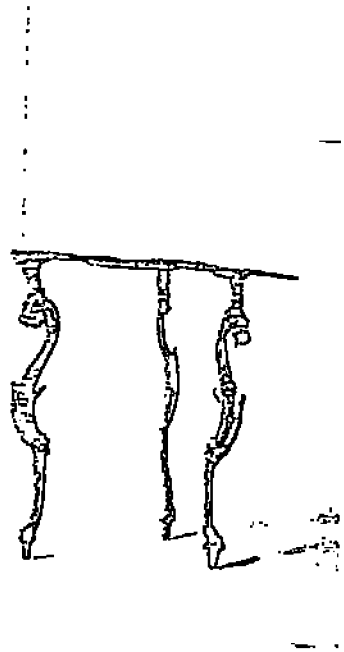

الرسم ٦ : خوان روماني

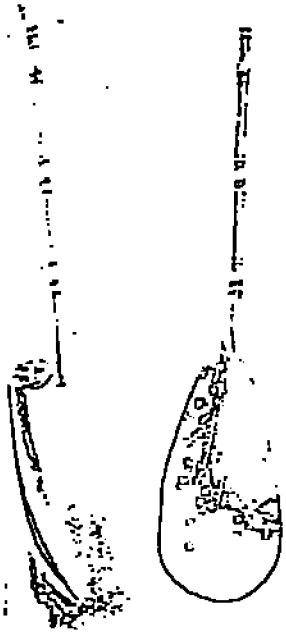

الرسم ٧ : ملعقة رومانية

السماوية ، يضعون على كل برج صحفة فيها نوع من الطعام يوافق البرج او يشير الى بعض خصائصه . وكان للصدر غطاء يُرفع بعد جلوس المدعوّين ، فيظهر في وسط الصدر أرنب بري رُكّب له جناحان على هيئة الحصان الطيّار فيغاسوس. وكان في زوايا الصدر اربعة تماثيل من حملة القِرَب ، يفرغون من قِرَبهم السوائل والتوابل المُقَلْقِلة .

وكان صاحب الدعوة يتفقّد مدعوّيه بالمآكل الطيّبة ، وافضلها ان يقدّم للاضياف انواعاً من الطعام اللذيذ لا يعرفونه ولا يدركون مركباته . وكثيراً ما كان يفاجئهم بالأمور الغريبة كأن يقدّم لكلّ منهم بيضة اذا كسرها وجد فيها عصفوراً صغيراً .

ولم يكن الرومانيون يستعملون الا اصابعهم في تناول الطعام ، بينا كان رئيس الخدم يقطّع اللحوم ويوزّعها . اما في السوائل فكانوا يستعملون الملاعق وهي مستطيلة اذا ارادوا استعمالها لتناول انواع الحساء وغيرها من المآكل المائعة ، ومستديرة محدّدة المقبض ، اذا استعملوها في اكل البيض . (الرسم ٧)

وكان الخدم يطوفون دائماً حول المدعوّين ، يوزّعون عليهم الخبز ، ويسكبون الخمرة فيشربها المدعوون في أكواب على شكل رؤوس الحيوانات . على انهم لم يكونوا يكثرون من الشراب الّا بعد الأكل لئلّا تفقدهم النشوة تذوّق الاطعمة اللذيذة . وكان من عاداتهم ان يشربوا الكوب دفعةً واحدةً ، هاتفين بحياة الداعي او غيره من الاصدقاء .

وكثيراً ما صوّر المؤرخون هذه المآدب بصورة مظاهر فظيعة للنهم والشراهة . وهو صحيح ، اذا ما قسناها بالمآدب اليونانية الممتازة ، على الغالب ، بما كانت تتخلّله من اساليب المناظرات العقلية . فاين هذه المجالس الادبية والفلسفية من جلسات النهم الرومانية التي كثيراً ما دفعت الأطباء الى فرض المقيئات على زبائنهم قبل الأكل وفي اثنائه . بيد ان المباحثات العلمية لم تفقد تماماً من المآدب الرومانية . فان بعض ذوي الثقافة كانوا يرقبون فرصة الأكل ، بعد شغل الصباح المُجهد ، وبعد الحمّام المُنعش ، ليخوضوا في ميدان المذاكرات العقلية . فيتناظرون لا في شؤون السباق والألعاب فقط ، بل في

الآداب ، والفلسفة والروايات التمثيلية ، وينشدون الاشعار ؛ او يستمعون لما يلقيه عليهم بعض الممثلين من مقاطع شهيرة في روايات العصر.

الموسيقى

ولم تكن مأدبة حافلة لتخلو من الموسيقى ؛ حتى ان دخول قصاع الطعام كان يُعلن عنه بانغام يوقعها الزمار ، وهو في الغالب لبناني الأصل او سوريّه ، على مزماره الطويل المعروف باسم (tibia) .

وكان هذا المزمار مؤلفاً من قصبة مستطيلة جُعلت فيها الخروق ، على شكل الشبابة . وكان من المزامير ما يُستعمل مزدوجاً في الحفلات العامة ، وفي مظاهر الابتهاج ، اما في الطقوس الدينية فكان المزمار مفرداً على الغالب . وهو آلة موسيقية قديمة الاستعمال ، نعرفها في مصر ، منذ القرن الرابع عشر ق.م. وقد يكون قد انتقل من مصر الى فنيقية ، ومنها الى جزر الارخبيل ثم الى بلاد اليونان ، ومنها الى رومة . وقد يكون ظهر في بلاد مختلفة دون ان يكون بينها من صلة.

ولا شكّ في انه صُنع اولاً من القصب البسيط ، ثم تُفنّن فيه فاتخذ من العاج او من الخشب الرقيق يغطيه المعدن . وبولغ في التفنن فيه على العهد الهليني ، وعند الرومان ، فبلغ طوله من ٤٠ الى ستين سنتيمترًا او اكثر من ذلك . وضُخم قسم الأسفل فانتهى على شكل القمع . (الرسم ٨)

ولما كان المزمار من اسهل الآلات الموسيقية استعمالا ، كان انتشاره عامًا ، بادئاً في عهده الأول بين الرعيان ، وهو لا يفرض في مستعمله الا مقدرةً على النفخ ومهارةً في تحريك الاصابع . ولهذا نرى كثيرًا من الرسوم تظهر النافخين بالمزمار ضخام الجثة ، منتفخي الخدود ، على قليل من الرشاقة . وقد شاء النافخون منذ القدم ان يتخلصوا من تأثير المزمار في خدودهم واوداجهم ؛ فكانوا يلفون رؤوسهم بلفائف تمنع ، في زعمهم ، ذاك التضخم .

وتذكر الاساطير ان اثينة هي التي اخترعت المزمار . على ان النفخ فيه كان يضخم خديها ويمجي وجهها فيعرضها لهزء رفيقاتها . حتى غضبت منهن

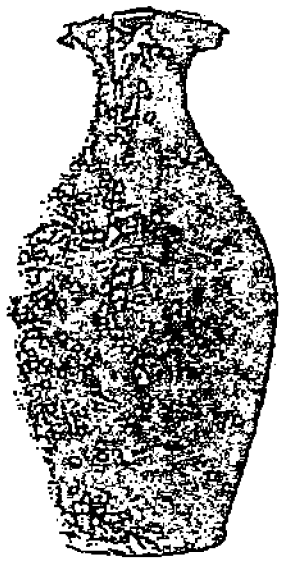

الرسم ٨ : إناء من العروتز عليه مزمار بان

الرسم ٩ : شخص مجنّح يحمل قيثارة

الرسم ١٠
تمثال شخص يشرب من إبزهر

الرسم ١١ : شخص بابوسيّين (نصف إله) من العاج تحيط به جنّيتان إحداهما تقدّم له كوبًا ، والثانية تنقر الدفّ

فرمت المزمـار ولعنت كلّ من يتجاسر فيتناوله . وكان ان مرّ مرسياس راقصاً مترنّحاً ، فاعجبه المزمار المطروح . فتناوله . واذا بـه يعجب بنغمته ، ويخال نفسه من اقدر الموسيقيين حتى انه لم يتراجع عن مباراة افولون . ولكنه غُلب في هذه المباراة ، فرُبط الى شجرة ، وسُلخ جلده .

وكان للمزمار ان ينال حظاً وافراً في بلاد اليونان ، الّا في العهد الهليني ، فانه ضعف انتشاره وانصرف عنه الناس ، ما عدا اهل الاسكندرية .

وكان لهذه الآلة ان تتطوّر ، وترتقي انغامها . فيتحوّل النافخ فيها من ذاك الرجل الضخم الجثة المنتفخ الخدين الى فنّان على نصيب من المهارة . بل كثيراً ما رأينا ، بعد ذاك العهد ، النساء ينفخن بالمزمـار بحذقٍ وفنٍّ فائقين ، وكثيراً ما كنّ من اللبنانيات والسوريات لاضطلاعهنّ ، في بلادهنّ ، بهذا النوع من الموسيقى . حتى اصبح المزمار ملك الجوقات الموسيقية ، كما ان الكمنجة ملكتها في عصرنا . وكان نافخ المزمار يدير الجوقة بنفسه موقّعاً برجله الانغام ، متجاوزاً احياناً الى الارتقاص ، بل الى الوقوع في الإغراق وفساد الذوق .

والى جنب المزمار ، كان يرغب الرومانيون في آلة وترية هي القيثارة (الرسم ٩) او المِزهر (الرسم ١٠) ، ومبدأهما واحد وهو تساوي اوتارهما جميعاً في الطول . اما الفرق في النغم فينتج من ضخامة الاوتار وتوتّرها .

وقد اختلف عدد الاوتار باختلاف العصور . فكان اولاً ثلاثة ، ثم وصل الى الاربعة ، والسبعة ، والتسعة ، والاثني عشر ، بل الى الثمانية عشر وتراً احياناً .

وكان يستخرج النغم بغمز الوتر حيناً ، واحياناً بالضرب عليه بواسطة « ريشة » من المعدن ، او العاج ، او عظم القرن ، او الخشب الصلب .

وكانت الألحان تضرب منفردة او مرافقة للغناء . وكثيراً ما كان الضارب من مؤلفي الألحان ، وقد يرتجلها ارتجالاً .

وعرف الرومان القدماء ، غير ما تقدم ذكره من آلات الموسيقى ، آلة تشبه الارغن ؛ وآلة تشبه المندولين دعيت بندور . والراجح انها مصرية الأصل . وهي تمتاز بانها ذات وترين او ثلاثة فقط . وقد كشفت حفريات صيدا الأخيرة عن معمل للخزف فيه كثير من رسوم هذه الآلة .

وكثيرًا ما كانت تُقرن الآلات الوترية والمصوّتة بطبلٍ صغير يشبه الدفّ اخذ الرومان استعماله عن اليونان وهؤلاء عن الشرقيين. والمشهور عندنا ان باخوس كان يلذّه قرع هذا الطبل. وان صوته كان ينفّر الارواح الخبيثة، كما ان قرع التنك ينفّر، في خرافات عامّتنا، الحوت او التنين الزاحف لابتلاع القمر. وقد رأينا في قبور صيدا عددًا من الضاربات على هذا الطبل الصغير. (الرسم ١١)

ولم يكن في وسع الجميع ان يتمتعوا بالانغام الموسيقية، فان الاغنياء وحدهم كانوا يتمكّنون من استئجار الجوقات. اما الجمهور فكان يكتفي بما يشاهده ويسمعه في المسارح العامّة.

المسارح

يرقى اصل التمثيل الى الاحتفالات الطقسية. ففي بعض الاعياد كان القوم ينصبون منابر خشبية على مقربة من الأكمات. فيظهر عليها الممثلون ويقومون بادوارهم، بينما كان الشعب يغتبط، واقفًا، بهذه المشاهد. وظلّ الوقوف من الشروط المحتّمة مدةً طويلة، لئلّا يتخذ الشعب عادة البقاء في المسارح مضيعةً لاشغاله، على قول تليت. ولم يكن هناك مواقف خاصّة بالاعيان او الفرسان، او غيرهم من افراد الرعية. بل ان الجميع كانوا يختلطون، لا فرق بين غنيّهم وفقيرهم، حتى كانت السنة ١٩٤ ق. م. فافرد، في المسرح، محلّات معيّنة لوقوف «الشيوخ». فاحتجّ الشعب على خلق هذه الامتيازات.

وقد برّ الامتياز امتيازًا آخر. فسُمح للشيوخ بان يوضعهم، في مراكزهم المعيّنة، مقاعد يستريحون عليها في اثناء التمثيل. ولم ينتصف القرن الثاني ق.م. حتى بُدئ بتشييد مسرح كما في بلاد اليونان. ولكن المراقبين امروا بهدمه. وصدر مرسوم قنصلي يحتّم حمل المقاعد الى المسرح في رومة وضواحيها على مسافة ميل.

على ان تطبيق المرسوم كان من الصعوبة بمقدار. لأن الروايات التمثيلية كانت تتجاوز الساعات بل تكاد تستغرق يوم العيد بكامله احيانًا.

وكان التمثيل على تقدّم، والتأثير اليوناني على اتساع. فبُني، في منتصف

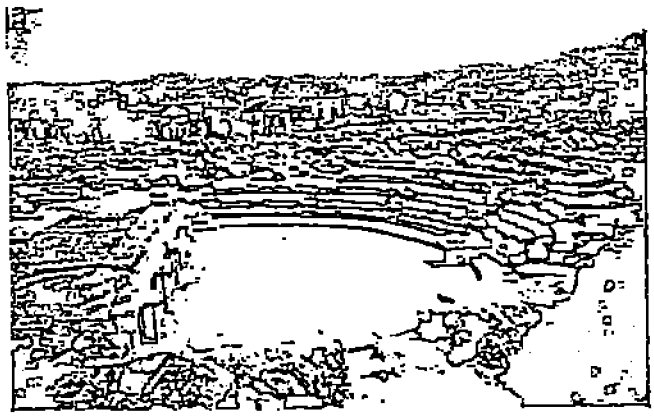

الرسم ١٢ : المسرح الروماني المكتشف في جبيل

القرن الثاني ق.م.، درج من خشب ، كان الشيوخ يجلسون بينه وبين الممثل. وفي سنة ٦٧ ق.م. خُصّ « بالفرسان » الصفوف الاولى حتى الرابع عشر منها . وكان هذا المسرح الخشبي يُهدم كله بعد انقضاء مواسم الاعياد.

حتى كانت السنة ٦٧ ، فانشأ بومبي اول مسرح حجري في رومة. وسرعان ما تعدّدت المسارح الحجرية في مناطق الامبراطورية حتى لم يبقَ مدينة الّا ولها مسرحها. وان لنا في لبنان وسورية كثيرًا من المسارح الرومانية في « المستعمرات» اي المدن المهنة الحائزة على امتيازات خاصة . وافضل ما بقي من هذه المسارح في جبل الدروز ، واكبر المعروف منها ، في مناطق الانتداب الفرنسوي ، مسرح بُصرى.

اما في لبنان فقد اظهرت الحفريات عدة مسارح ، وبعضها كانت اطلاله ظاهرة للعيان . منها مسرح بعلبك ، وكان ظاهرًا منه جدار واحد من الحجارة الضخمة الى جنب اوتيل پلميرا ، فسبرت البعثة الالمانية موقعه ، واذا بها تتحقق وجود مسرح المدينة . وهو مسرح كبير حتى ان ساحته تتناول موقع پلميرا في اكثريته ، وموقع البناية القائمة الى جانبه ، وموقع دير الراهبات المبني وراءه ومن الراجح ان اقساماً مهمة من هذا المسرح لا تزال محفوظة تحت الارض.

ونعرف ، على الساحل اللبناني، مسرح البترون او بوتريس ، ومسرح جبيل الظاهر بفضل الحفريّات الاخيرة،والراقي الى نحو القرن الثاني ب.م.(الرسم ١٢)

ولمّا كانت هندسة هذه المسارح منقولة بدقّة عن هندسة مسارح رومة ، كان من المحتمل ان نستنتج المماثلة في نظام الحفلات المسرحيّة . ولهذا نرانا مضطرّين ، في درس هذه الحفلات في بلادنا ، الى الاخذ بالمعلومات التي نعرفها عن رومة ، مع الانتباه الى الفروق بين حياة العاصمة وحياة الملحقات.

لم يكن جميع القضاة ، وهم الذين يقيمون حفلات التمثيل في رومة ، متضلّعين من هذا الفنّ ، فيمكنهم الحكم بانفسهم على الروايات المسرحية . ولهذا كانوا يلتجئون عادةً الى رئيس الفرقة التمثيلية ليختار لهم من الروايات ما يراه جديرًا باقبال الجمهور. ويكون هذا الرئيس ، على الغالب ، من كبار الممثّلين الحائزين على مساعدة الحكومة ، يجمع بين ادارة الفرقة وادارة المسرح. فيعرض

عليه الشاعر او المؤلف روايته . واذا اعجبته اشار على القاضي،فيشتريها ويأمر باقامة الحفلة . حتى اذا لم تنجح الرواية ، ولم يقبل عليها الجمهور ، اضطرّ المدير ان يعيد ثمنها الى القاضي المشتري .

وبعد الحفلة الاولى ، كان المدير يقوم مع جوقته بدورة في الولايات ، فيمثل الرواية التي تُصبح ، على ما يظهر ، من ممتلكاته الخاصة .

اما طريقة الإعلان عن الرواية فاننا لا نزال نرى لها مثيلاً في عصرنا . وهي تقوم بان يجول احد المنادين في اسواق المدينة واحيانها هاتفاً باسم الرواية — واحياناً كانت الاعلانات المكتوبة تقوم مقام المنادين .

اما دخول المسرح فكان مباحاً مجّاناً لجميع الرومانيين . وقد كانوا يقبلون احياناً العبيد انفسهم .

وواضحٌ انه كان يصعب على القائمين بادارة المسرح ان يحفظوا الصمت والسكون في حفل كهذا متباين الطبقات الاجتماعية ، مختلف الثقافات والنزعات .

في اثناء التمثيل

كان المؤلفون او الممثلون يوطّئون لرواياتهم بمقدّمات يقرأها احد الممثلين ، قبل الشروع بعرض الرواية ، فيشرح للحاضرين موضوع الرواية وتقسيمها ، ويدافع عن المؤلف رادًّا على المتهجّمين ، طالباً من الحاضرين السكون والاصغاء التامّين .

وان لنا في مقدّمة بعض الروايات ، كآثار بلانت مثلاً ، لدلائل واضحة على كون الجمهور مِيّالاً الى الشغب : ففيه اناس يتنازعون حتى المضاربة ؛ وفيه عبيد يحتلّون اماكن الاحرار فيضطرّ رجال النظام الى طردهم ؛ وفيه الغانيات اللواتي يقصدن المسارح ليعرضن جمالهنّ فيصرفن انظار الناس عن مشاهدة الرواية ؛ وفيه كبيرات العقائل يتحادثن بالصوت العالي ويتهقهنّ مزعجات الجيران ؛ وفيه المراضع مع اطفالهنّ الذين « يصرخن كالعجول » ؛ وفيه وكيل النظام الذي يزعج الجمهور بكامله كي يقود الداخلين الى محلّاتهم الخاصّة .

هذه حالة المسرح العادية من الصخب والضجيج . فكيف بها اذا ما قصد

حسّاد المؤلف ان يتآمروا عليه مشاغبين . وكثيراً ما كانوا يقصدون ذلك لفرط ما كان يوغر صدور المؤلفين والممثلين بعضهم على بعض من الغيرة والحسد .

وكان من عادة المؤلفين او ارباب المسرح ان يؤجّروا اناساً مأجورين في زوايا المسرح ، كي يصفّقوا لبعض مشاهد الرواية فيثيروا التصفيق والإعجاب بين الحاضرين . بيد ان هذه الحيلة كان يفسدها المنافسون بخطّة معاكسة . فيقوم رجالهم ، المأجورون كذلك ، ويصفّقون او يضجّون او يهيجون الشعب على الرواية والممثلين بكلمات مقتضبة ينتقدون بها الإدارة ، او باوراق صغيرة يدسّونها من صفّ الى صفّ داعين بها النـاس الى المقاطعة . ومما كان يزيد هذه المعارك المسرحية شدةً أنّ الرومانيين كانوا شديدي التعصب لممثليهم . على رغم مـا كان يؤلم هؤلاء من احتقار الناس لمهنتهم المنحطّة في نظر الجمهور ، بل في نظر الشريعة نفسها ، حتى العصور المتأخرة .

بيد ان الممثلين اخذوا يتقرّبون شيئاً فشيئاً من كبار القوم ، على الطريقـة اليونانية . حتى فازوا باعجاب الناس وحبتهم ، وتعصّبهم المندفع ، على عهد الامبراطورية ، وقد قال تاسيت ان التعصّب للممثلين من النقائص التي تظهر في الروماني منذ ولادته .

وكان من نتائج هذه العصبية ان مريدي بعض الممثلين ومناوئيهم كانوا يتشاحنون احياناً حتى المضاربة اثناء تمثيل الرواية . ويُذكر ان نيرون جرح مرّة بيده ، في معركة من هذا النوع ، قاضياً كبيراً من قضاة الجمهورية . وذُكر كذلك حادثة قتل اثناء تمثيل احدى الروايات ، على عهد طيباريوس . وان نعجب لأمر فعجبنا لتمكن الحاضرين من متابعة حوادث الرواية في هذه الضوضاء الغالبة .

ادوات التحسين والزينة

لم يكن لدى الرومانيين آلات تضخّم الصوت او تمدّ به . ولهذا نراهم قد دُفعوا ، منذ عهدهم الأول بالمسارح ، الى الاهتمام باصول السماعيات اهتماماً بالغاً . فدقّقوا في بناء مسارحهم متجهين هذه الجهة ، ضابطين القياسات كلّها ، ولاسيّما عمق المثل وعلوّه بالنسبة الى صفوف الحاضرين . حتى انهم كانوا يضعون احياناً ،

في الحنايا الدائرة بالقاعة ، آنية من البرونز مختلفة القياسات مضبوطة النبرات ، تتناول اصوات الممثلين وترددها مضخمة مصفاة . وكان هذا الاهتمام بالسماعيات يفيد ، لا اصوات الممثلين فقط ، بل انغام النايات والمزامير الشرقية التي كان يوقعها الموسيقيون في الفترات بين الفصول فيضبطون انتباه الحاضرين ويمنعونهم من الانصراف . على ان كل هذه الاحتياطات كانت اضعف من ان تمكن الحاضرين من متابعة الرواية ، وسط الضجيج الموصوف سابقاً ، لولا ما كان في ملابس الممثلين من علامات متفق عليها تُشير الى صفاتهم واخلاقهم .

من ذلك ان ارباب المآسي كانوا يلبسون جبةً من الشعر وفيرة ، وقناعاً مستطيلاً يعبّر عن الألم . وكانت احذيتهم متعددة النعال كي يرتفعوا بواسطتها فتزداد قاماتهم طولاً .

اما ارباب المهازل فكانوا يضعون على وجوههم أقنعة مستديرة ذات افواه متسعة معجاة دلالةً على القهقهة والسخرية . وكثيرًا ما رأينا أقنعة المآسي والمهازل تستخدم صورها في زخارف المسارح واندية الملاهي . وكان لهم كذلك ألبسة مختلفة باختلاف الادوار التي يقومون بتمثيلها حتى يُصبح كل لون ، وكل زيّ ، مختصًا بدور مثالي كدور العبد ، والطفيلي ، وغيرهما . فكان يسهل ، والحالة هذه ، على السامع الذي انتبه لقراءة المقدمة ان يتابع فصول الرواية بمشاهدة الممثلين وما ترمز اليه ألبستهم .

سباق المركبات

وللرومان ، غير ما تقدم من الملاهي ، ألعاب المدرجات والميادين حيث يجري سباق المركبات .

كان صاحب الحفلة ، اي الموظف الذي يقوم بتنظيم الألعاب ، يتقدم الجميع في طوافٍ احتفالي يجمع الاولياء ، والحيّانة ، والكهنة . فيدخل الميدان ، ويدور حوله ، بين هتاف الشعب . ثم يحتل الموظف مركزه في شرفة فوق المدخل .

ويشير الموظفون ، فتنفتح الأبواب . واذا بالمركبات تخرج متسارعة ، فتدور عادةً سبع مرات متسابقة . وتفوز بالسبق المركبة التي تجتاز ، قبل غيرها ، في

الدورة السابعة ، خطاً ابيض مسطوراً على ارض الميدان .

وكانت المركبة تحمل لون الفئة التي تنتمي اليها . وهما لونان فقط اول الأمر : الابيض والاحمر . ثم أضيف الأزرق ، والأخضر ، والارجواني ، والمذهب .

ومن الطبيعي ان يتحمّس افراد الشعب كل لحزب او فئة . وان يعهد كبار القوم للفئات المتسابقة بخيولهم يركضونها في مجال السباق .

وقد ذُكر من الاباطرة من كان يميل الى هذا النوع من اللعب حتى الحماسة والعصبية ، بل ان منهم من كان يقود المركبة بنفسه . وكان مركز الحوذي من المراكز المغبوطة لفوزه باعجاب الشعب ، ورضى الامبراطور ، وبالكثير من الاموال حتى ان الشاعر جوڤينال قدّر ثروة احد الحوذيين بثروات مائة محام مجموعة .

وكثيراً ما سُمعت اهازيج الجماهير وهتافاتهم ، اثناء السباق ، في انحاء المدينة بكاملها ، بل كثيراً ما تجاوزت اصداؤها الى خارج المدينة . ولم يقلّ الاباطرة عن الشعب هوساً واندفاعاً حتى ان كاليغولا اتهم بانه دس السُمّ لاشهر حوذيي منافسيه . وأمر كراكلا فرقةً مسلحةً من الجند فاكتسحت الميدان عقاباً للشعب الذي دفعت به الجرأة فتهكم على حوذي الفئة المنتمي اليها الامبراطور . ثم أمر هذا بقتل حوذي الفئة المنافسة لانتصاره انتصاراً باهراً على فئته .

هذا في رومة . وكذلك في بيزنطية فقد كانت المنافسة بين فئات المتسابقين تولّد المشاحنات الدامية .

وكانت هذه المشاحنات الداخلية تتجاوز نطاق الميادين الى الخارج . يعززها صخب الجماهير المحتشدة تحت الاروقة وامام الابواب ، حول الباعة ينادون كلّ على بضائعه ، او حول الراقصات الشرقيّات ، والعرّافين والسحرة يستطلعون المستقبل ليجاوبوا السائلين عن المركبة السابقة والحوذي الفائز .

ولا يخفى أن هذا الميل للسباق كان يمتدّ من العاصمة الى المدن الكبرى فالى سائر مدن الامبراطورية ، ولكل منها ميدان فسيح كشفت عن كثير منها ، الحفريّات العصرية .

وقد نشر حضرة الاب موترد ، في مجموعة كلية القديس يوسف سنة ١٩٣١ ، رسم صفيحة سحرية من الرصاص اكتشفت في بيروت ، واذا فيها معلومات عن

ميدان هذه المدينة. ومن الراجح ان الميدان كان ينبسط في حي البرد الحاضر، بين شارع المونسنيور شبلي، قرب القنصلية الفرنسوية، وكنيسة الآباء الكبوشيين. وهناك منبسط لا يزال يدعى حتى اليوم «بالوادي». والمرتفع فوقه، عند مقابلة شارع الجيش بشارع بيتان، يظهر على شكل قوس فيعزز قول من يضع الميدان في تلك النقطة. وقد شاهدت بنفسي، في الحفريات التي أجريت مؤخرًا لتشييد بعض البنايات الجديدة في «وادي ابو جميل»، عددًا من الاعمدة منطرحة في الأرض كأنها قُصفت على اثر هزة ارضية. ويغلب ان تكون الصفيحة الرصاصية التي درسها حضرة الاب موترد قد اكتُشفت في موقع القنصلية اليونانية الحاضرة. وقد تحقق الاب موترد في الصفيحة المذكورة اسماء افراس وشياطين. اما الكتابة فغايتها القاء السحر على الافراس والحوذيين المنتمين الى الفئة الزرقاء، وهي مجموعة من اقوال وتعابير وادعية مرفوعة للسلطات الجهنمية. واما تاريخها فيرقى الى القرن الثالث بعد المسيح. واذًا فان بيروت كان فيها ميدان منذ ذاك العهد.

وهناك نصوص غيرها تتكلم عن هذا الميدان. منها اوصاف توسيوس اوريبيس الذي يذكر الألعاب المقامة في ميدان بيروت نحو السنة ٣٥٠ للمسيح.

وكذلك نعرف من حياة ساويروس ان مشاهد الألعاب في ميدان بيروت كانت، في نحو السنة ١٨٧ او ١٨٨، تجذب اليها طلّاب معهد الحقوق، وهو اذ ذاك اعظم معهد في الامبراطورية كلها. وكثيرًا ما كان هؤلاء الطلّاب يلجأون الى التعابير السحرية، والى العلوم الخفيّة في سبيل غاياتهم حتى اشتهر عدد منهم بالسحر، على قول زكريا، بل قيل انهم كانوا يستعدّون للتضحية، في ميدان بيروت، باحد العبيد الأحباش.

فكان ان ضُبطت كتب الطلّاب السحرية وأُحرقت باحتفال، امام كنيسة العذراء على المرفأ، بحضور محامي المدينة ورجال الأمن، وطلّاب العلوم الدينية. وكان ذلك سبب اضطراب عام بين سكان بيروت.

هذا مجمل ما نعرفه عن بعض التقاليد والعادات الرومانية في العاصمة وكبيرات المدن. ذكرناه بكل اختصار واجمال مستندين الى بعض ما يحفظه متحفنا من وثائق.